أن ترى نجوم الليل

الكتاب: أن ترى نجوم الليل

المؤلف: هبه البدهلي

عدد الصفحات: 80

الطبعة: الأولى 2019

الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

أن ترى نجوم الليل

مجموعة قصصية

هبـــه البـــدهلي

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
2019

الإهداء

أبي... هذا التاج فوق رأسي، مُرَصَّع بإخوتي، مُمَيَّز بأمي كجوهرتي الغالية.. أحبك بقدر الكون

أبنائي (عبد الرحمن، ومصطفي، وأحمد).. اِطمئنوا بقلبي، سأعلق الباب فاسكنوا في أمان وكونوا لأكون.

أستاذ صنع الله إبراهيم.. شكرًا لدعمك، ولأنك أهديتني لقبًا أعتز به (الخالة).

لكل من قرأ كتابي هذا...

أنا بِكُم

هبه البدهلي

لون آخر للحياة

لا شيء يتغير في هذا المكان.

الكراسي في ذات أماكنها، المنضدة الكبيرة نسبياً في الوسط، الطاولات الصغيرات ما بين الكراسي مُثقَّلة بالكتب كما هي، إحداهما تحمل هاتفًا تقليديًا مقيدًا بسلك إذا تحرر منه فَقَدَ قدرته على العطاء.

لا يزال الركن الأيمن من المكان يستند إلى هذه المكتبة الضخمة، أو تستند إليه... تسكنها كتب مجبرة على الوقوف والشموخ رغم كثرة السنوات التي مرّت بها، فلا يمكنها الراحة ولو قليلاً.

رف واحد تستند به الكتب إلى بعضها قليلًا، يميناً تارة، ويساراً تارة بفعل الزيادة أو النقصان، حتى ذرات التراب بين صفحات الكتب الشامخة ساكنة مطمئنة مُدّعية حقها في استيطان هذا المكان، متحججة بكونها ملائمة لصفرة الكتب.

حتى أنا لا أجلس إلا على ذات الكرسي لعلّني بمجلسي هذا أناسب عدم التغيير في المكان.

الشاشة والمدفأة الحديثة هما فقط ما لا يتناسب مع كل ما هو عتيق بالمكان.

يجلس ربُّ البيت على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه كلما أتيتُ لزيارته وزوجته، وتجلس هي على كرسيها الذي لا أدري إن كان المُفَضّل لها أم لا، ولكنها دائمًا ما تجلس عليه أيضاً حينما آتيهما.

يرقد على رأسيهما شعر أبيض لامعًا لا يقوى على العودة إلى سابق لونه، أو التقدم إلى مرحلة جديدة بلون جديد، ويسكن رأسيهما فوق جسدين وهنين نسبياً، يتميز جسده عن جسدها بانحناءة بسيطة في ظهره.

تضع الساق المرتعدة قليلًا فوق الساق في شموخ اعتدت أن أراها عليه. يربع ذراعيه أمام صدره لدقائق كثيرة كعادته خلال الزيارة وأثناء الحديث.

يشرد أحياناً بذهنه ثم يعود دون أن يدري أنني أدركت ذلك من نظرة عينيه التي تضيق قليلًا خلال شروده.

يتبادلان الإنصات لي، والنقاش معي، سعدت لاهتمامهما وارتحت لطرح مشكلتي على أرضهما.

شربت قهوتي التي أعدها لي، وأكلت من الكعكة التي قدمت هي لي..

ضحكنا رغم أي شيء، فضحكا كما طفلين صغيرين، وودعاني كما أبوين بعد أن ألقيت نظرة سريعة على المكان، وبعد وعدي لهما بتكرار الزيارة قريبًا إذا ما تمكنت من ذلك، فتابعتني بناظريها أثناء هبوطي درجات السلم، ورافقني بكشّافه الصغير خلال رحلة الهبوط، فلم يطفئه إلا حينما سطعت النجوم في ليل الشارع ممتزجة بما ينبعث من ضوء زجاج نوافذ المنازل...

ذهبت علّني أعود.

***

حافظة الأحلام

الساعة الثانية عشرة ليلاً... كان عليها العودة إلى المنزل في سرعة، فسيدة في نهاية الثلاثينات مثلها لا يجوز أن تتأخر أكثر من ذلك كي لا تثير الجدل.

حملت ما اشترت وركبت السيارة الأجرة في عجل، والتي ستركب بعدها أخرى، ثم ثالثة لتصل إلى منزلها.

أطعمت زوجها وابنها اللذان كانا في انتظارها لينامـا، لتجلس هي مجلسها المحبب في الشرفة ليلاً.

أضاءت نور الغرفة ليضئ لها الشرفة، فنجوم السماء قليلة الليلة، وقمرها لا زال هلال لا يقدر على إرسال ما يكفيها من ضوء.

فتحت الحقيبة البلاستيكية التي أحضرتها لتخرج ما اشترت من (المول)... حافظة نقود كبيرة أكبر من تلك التي كانت بحقيبتها من قبل، فقد كانت النقود والأوراق تنفر منها لصغرها.

أتت بحقيبتها فأخرجت منها الحافظة القديمة، وأخذت تصفف كارنيهات القيد بالنقابة، والتي تحتفظ بها على مدار سنوات كثيرة، وروشتات علاج ابنها من حساسية الصدر، وروشتات علاجها من آلام الظهر المتكررة.

صففتها جميعاً سعيدة باتساع الحافظة... أخذت بعد ذلك الخمسين جنيهًا الموجودة بالحافظة القديمة، ووضعتها بالجديدة في ركن، قد جعلته للنقود.

أغلقت الحافظة ثم أخذت تنظر لها بإعجاب وابتهاج، ثم وضعتها في حقيبتها وأغلقتها عليها جيدًا حتى لا تسقط، وألقت بالأخرى المهرتلة بالشارع.

أطفأت النور، وعادت لمكانها تنظر إلى الطريق في ظل ما بقى من ضوء.

***

لقاء عاجل

مصرع ١٦ وإصابة العشرات في تصادم قطارين...

فتح عينيه على ذلك الخبر على "فيس بوك" بعد نومة قصيرة لم تتعد الساعتين، فكان استيقاظه على جرس منبه الموبايل استعداداً لذهابه لعمله.

فاليوم هو وحده بالبيت بعد أن أوصل زوجته وطفليه إلى محطة القطارات، واطمئن بنفسه إلى ارتياحهما بعد استقلالهم القطار، ثم عاد وأتنس بضوء مصابيح السماء الآتي من النافذة، حتى وإن كان خافتاً بعد أن انقطعت الكهرباء فور حضوره للمنزل.

انتفض واقفاً حينما قرأ أن أحد القطارين المتصادمين هو ذلك المتجه إلى أسوان.. أي ذلك الذي كان به طفليه وزوجته... لا لا... ربما، بل هو.. لم يكتبوا رقمه ولا رقم الرحلة.... هو، آآه من قلبه شقت الفضاء فوصلت إلى عنان السماوات.

توسل إلى الرحمن ألّا يصيبهم مكروهًا.

ارتدى ملابسه وحادث صديقه وهو يبكي.. اِلتقيا، وذهبا إلى هناك، في مكان مليئ بالبشر، بالصراخ، ببقايا أناس... ملابسهم، وحقائبهم، وأحذيتهم، بل وقطع من لحومهم.

لم ير أيًا منهم ولا حتى أشيائهم.

لا.. بل وجد فردة من حذاء ابنه الأكبر (صابر).

تُرى! هل هذا هو حذاءه أم فقط يشبهه، لم يمكنه الجزم حيث أنه ملطخ بالدماء.

تُرى هذا هو دم اِبني صابر، أم دم طفل آخر... لا يهم، المهم أنه دم لطفل كان في حضن ذويه.

جرى إلى ذلك الطريق الذي يجرون إليه... طريق المستشفى.

هل سيشفى؟.. هل هم على قيد الحياة؟.. هل مات أحدهم وبقي الآخر؟

طريق المستشفى طويل جداً، يقود السيارة صديقه، وتقوده أفكاره إلى المجهول المعتم.

وصل صديقه أخيراً إلى المستشفى... طلب منه أن يفتح عينيه فقد وصلا، فلم يفعل... هزّه لعلّه غفى فلم يفق من غفوته، فقد ذهب إلى هناك متعجلاً لقائهم.

التفاحة

يزداد البرد فيزداد إلتواء جسده الضئيل تحت بطانية بالية، والتصاقه بجانب أحد الحوائط يقضم تحت البطانية تفاحته التي حظيّ بها بعد توسلٍ لعجوز يحمل مشترواته أمام أحد أبواب سوبر ماركت.

اشتم التفاحة وقتها، فاستنشق عطرها... أخذ يضحك ويدور حول نفسه قافزاً إلى السماء واضعاً تفاحته بجيبه، فالجو في النهار مشمس يحمل الدفئ والنور، وبالتالي القدرة على التنقل بين صناديق القمامة المليئة ببقايا الطعام اللذيذ، أما الليل فشديد البرد لا حركة فيه، بل جوع ينهش البطن، وإنهاك يتبعه سكون في ركن حائطي هادئ علّه يحميه من قسوة الشتاء الليلية.

ينتهي من تفاحته فلا يبقى منها إلا عمودها النحيل المسكون بالبذور... يُخرج يده من تحت غطاءه ويلقها في ذلك الفضاء البعيد لتأخذها السماء علّها تسقطها يوماً ثماراً على المحتاجين... وترسل إليه بواحدة أخرى في صباح آخر.

شعر بشئ من الدفئ بعدما انشغلت عصارة معدته بالتهام التفاحة، فانفردت ساقاه قليلاً، ثم فتح لناظريه الطريق إلى نجمات السماء صديقاته اللاتي تؤنسنه، فقد عرض عليهنّ الصداقة حينما كان ينظر إليهنّ من شباك الملجأ قبل هروبه.

نام وهو ينظر إليهنّ كما اعتاد.

***

ليلة

في القطار العائد من أسوان، ومع تلك الدرجات من اللون الأسمر على وجوه ركَّابه، يسرح بخياله المُتَذكِّر لتلك الليلة... وداعه سمراوته التي يحب.

أغمض عينيه وفتح سمعيه وقلبه لأغنية كان يغنيها أحدهم في هدوء:

(الليلة.. الليلة.. الليلة يا سمرا يا سمارا الليله يا سمرا...).

كانت ليلة وداع تليق بقصة حب منذ بدايات الشباب، فجميلة... تلك الجميلة لم تقبل إلا أن تظل جميلة في جميع أحوالها، تزينت وحضّرت ليلتها لوداع محتوم.

تابعت من خلف ظهره نجماتها اللاتي كانت تحدثهنّ دائماً راجية منهنّ أن يخبرنّ السماوات برغبتها في مولود... مولود واحد فقط يغلق أفواه أمه وأخواته ويُسكن رغبتهم في تزويجه، ليحفظ اسم والده، فالرجل لا يموت دون ولد.

عاتبتهنّ بعينيها ولم تعاتبه... حتى لم ير دموعها كانت قوية.

قبَّل قدميها كي تبقى فأبت، فلا يمكن أن تشاركها فيه زوجة أخرى.. لم تحتمل مجرد الفكرة... نظرت إلى حقائبها المُعّدة منذ النهار، ونظر إلى دولابها الفارغ من ملابسها إلا من قطعة واحدة تنوي بها الرحيل.

أمتعته كما لم تمتعه من قبل... ذهبت في الصباح مع ذويها ولم تعد.

فتح عينيه على بكاء طفلته التي أخذت أمها في هدهدتها حتى عادت لنومها، وأغمض عينيه ثانية ليعود إلى ليلته مسترجعاً لحظاتها.

***

نداء

ترتفع الآهات أثناء سيرها في طريقها إلى ردهة المستشفى الذي تعمل به...

تتجه إلى بعض الغرف حيث أصوات المتألمين واحداً بعد الآخر، لم تتجاهل صوتاً واحداً ولم تشعر بذلك الجهد الذي بذلت.

ذهبت لتنتظر بجوار النافذة فهي تحب تلك النسمة الصيفية الباردة، وتلك النجوم اللامعة متشوقة لمداعبة رضيعتها التي تركتها لأختها قبل أن تحضر إلى المستشفى، فعروق صدرها تشتد ممتلئة باللبن مُعلنة عن احتياج ابنتها للرضاعة على حد اعتيادها ذلك الشعور.

يدق جرس يعلن عن احتياج أحد المرضى لشئ فتذهب مسرعة ملبية النداء.

***

الرقم القومي

في الطابور المتناقص ببطء كلما اقتربنا من شباك موظف الأحوال المدنية، أقف ممسكة باستمارة الرقم القومي، وصورة لبطاقتي القديمة التي أعلنت عن انتهائها منذ شهور حينما ذهبت لشراء خط جديد لهاتفي المحمول الذي يستوعب شريحتين، والذي اشتريته أول أمس بالتقسيط.

عليّ أن أسلّي نفسي في أثناء هذا الانتظار المُمِل... سرحت تلقائياً في جميع مشاكلي... لم أصل لحل لأي منها... زاد شعوري بالملل وامتزج بألم ساقيّ.. استأذنت من هما أمامي وخلفي بأن أجلس قليلاً، وتحفظان لي مكاني بينهما.

فعلت.. حاولت التهرب من مشاكلي ففتحت صفحتي على فيس بوك... كل شيء ممل بها.. مُكرر إلا أخبار الموتي والمرضى.

الموتى هل تخيلوا يومًا أنهم ميتون في هذه الأوقات تحديداً؟ أظنهم كانوا يقرأؤن أخبار موت غيرهم ويقومون بنعيهم كأن هذا الأمر بعيد عنهم .. مثلي.

وضعتُ المحمول بحقيبتي وجعلتُ أنظر إلى الوجوه.. أظن أن وراء كل وجه حكاية، وعينان تتابعان غيرها مثل عينيّ لعلهم يتابعوني أيضاً، تناقص طابور الرجال بنسبة أكبر من تناقص طابور النساء.

النساء منهن المتزينات، ومنهن غير المهتمات بإيضاح جمالهن بشئ من الزينة أو الملابس المنسقة، لا أظن أن االمتزينات سعيدات وغيرهن غير سعيدات، ولا أظن العكس أيضاً.. لا أدري لعل لكل منها عادة حينما تغادر منزلها.

وقفت لألحق بمكاني وأترك مجلسي لغيري من المنهكين في سبيل إثبات الذات.

وصلت أخيراً للشباك، فصدمني الموظف بأن هناك غرامة تأخير واجب دفعها، وحينما اغرورقت عينيّ وعدني بأني حينما أعود لن اقف في الطابور مرة أخري، وإنما سآتي اليه مباشرة.

هبطّتُ الدرج للموظف المسؤل عن تحصيل الغرامات.. فعلتُ ماطُلب مني وصعدت بالإيصال والأوراق التي كانت لا تزال بيدي إلى الأعلى واتجهت إلى الشباك مباشرة. وبعد معاناة في إفهام الأخريات والاستعانة بالموظف لتوضيح الأمر لهنّ.. تركنني وهنّ تنظرنّ إليّ شزراً.

بصمت ووقعت وخَتم لي على ورقي ووقّـع، وسمح لي بالذهاب إلى الغرفه الأخرى.. غرفة التصوير، وهناك وجدت طوابير أخرى غير منسقة وأشخاص يجلسون على الأرض وأربع مقاعد لكبار السن كلها خارج الغرفة، أما داخلها فمكتب وموظف وجهاز كمبيوتر وكاميرا لالتقاط الصور للوجوه جميعها المتزينة وغير المتزينة.. الرجال والنساء..

تناثر الطابور، حيث أن الموظف لا ينادي بذلك الترتيب الذي كان بالغرفة الأولى والذي على أساسه وقف الناس بهذا الطابور.

حادثت أبنائي مِراراً، ونصحتهم أن يتناولوا غداءهم الذي جهزت لهم قبل حضوري، فالنهار قارب على الانقضاء.

نادى على اسمي أخيرًا فانطلقت وجلست غير قادرة على الابتسام.. التقط الصورة على أي حال... أخذت ورقة بميعاد الإستلام بعد أسبوعين..

ذهبت إلى والدي الذي طلبني لإعداد وجبة غداء حيث نفد الطعام الذي اعددت له ولا يشتهي أكل الجبن.

حدثت أبنائي كي ينهوا واجباتهم ويتناولون عشاءهم، وإن تأخرت يذهبون إلى أسرتهم في مواعيد نومهم، فغداء أبي سيكون

متأخراً، غير أني لا بد وأن أرتب له المسكن حيث لا يقوى على ذلك، وقد ذهبت أمي إلي عالمها الآخر.

أنهيت كل ذلك وعدت مسرعة إلى أبنائي الذين ذهب والدهم إلى نفس العالم الذي ذهبت إليه أمي...

نام أولادي وذهبت منهكة إلى سريري فاتحة شباكي لنسمة هوائية تجاهد في سبيل إثبات كونها في الغرفة، كما تجاهد النجوم في سبيل وجودها في السماء في هذه الليلة المارقة حتمًا في اتجاه العدم.

***

حفل في السماء

أمه.. تلك التي أغمضت عينيها الليلة، خرجت روحها وسط كل هذا الزحام في هدوء دون أن يراها أحد.

إلى أين ذهبتِ يا أمي؟

شرفة غرفته بلا زحام... ذهب إليها مسرعاً فلربما خرجت أمه من تلك الشرفة لتصعد إلى هناك.

النجوم اللامعة في ظلمة السماء ساعدتها على الصعود.. ربما!، وربما حينما صعدت سطعت النجوم احتفالاً بحضورها، فهناك حفل، وهُنا مأتم، فأينما ذهبت أمي كانت البهجة.

ارتفاع حرارتها لمدة ثلاثة أيام- كانت قبلها تملأ البيت مرحاً- كان سبباً فى وفاتها...

ما الذي كان بداخلك يا أمي؟

هل كان فوران الروح تأهباً لصعودها؟!

كل مخفضات الحرارة رفضت أن تهدئ من ذلك الفوران... ذبلت... تراجعت بهجة روحها تدريجياً، إلى أن طلبت أن ترى

ابنتيها وحفيديها، ولم تكتف بي موجوداً معها قائلةً: (مش عارفه اشتقتلهم فجأة كده ليه! مع إن الجمعه بكره مش بعيده يعني!.. كلمهم خليهم ييجوا يباتوا هنا).

فعلتُ فحضروا معاً كما دائمًا يحضرون، فشقيقتي الاثنتين زوجتين لشقيقين... تسكنان في عمارة واحدة.

ومن باب الشقة لباب الغرفة لسريرها مباشرةً كانت خطواتهم.

ابتسمت، وما أجمل ابتسامتها.

قالت في بهجة: (شايفه ابوكم معاكم)... تبادلنا النظرات الدامعة، وبينما نفعل صعدت روح أمي، وهي باسمة الثغر.

استشعرها بين النجوم، فما هو ساكن على السرير ليس إلا جسد كان لأمي.

***

الجنة أيضًا داخل العباءة السوداء

وفي ليل شتوي فاقد النجوم قاسٍ، ظلت تنتظر ابنها، الولد الذي كان عليه الحضور إلا أنه لم يحضر... اتصلت بطليقها تسأله عن ولدهما، فكان الهاتف المحمول مغلق كما هاتف ولدها.

أغلقت شرفتها وذهبت لعباءتها السوداء التي لا زي لها إلا هي، وشبيهاتها.

وضعت الطرحة على رأسها وأخذت مفتاحها وجرت إلى خارج المنزل...

لم تكترث بما سيقول أهل القرية عنها، حين يراها أحدهم أو حتى بعضهم، ولم تفكر فيما سيفعل أبوها إذا استيقظ ولم يجدها بالبيت، فأبوها لا يشعر بما في قلبها، فقد نام قائلاً: (وفيها إيه يعني لو يبيت مع أبوه ليلة والا اتنين؟! روحي اتخمدي والصباح رباح).

جرت بالشارع المؤدي إلى الشارع الموازي للشارع الذي يسكنه منزله، ومنه إلى المنزل الذي طُردت منه لأنها نامت قبل أن تضع العشاء أمام حماتها ذات ليلة.

لم يكن شعورها بالإرهاق مقبولاً، فالأم هي الكل في الكل، والجنة تحت قدميها، كما قال لها حينما صفعها على وجهها، وحينما ربتت على كتفه أمه- المتفرجة الصامتة- في حنو وفخر.

يجلس الولد خائفاً خلف البوابة الحديدية، وأمام البوابة الداخلية للبيت. تلمحه... تعرف ملامحه جيداً حينما يخاف....

يقف أبوه إلى جواره: (لو قولت اروح لماما تاني هبيتك هنا لوحدك)... يبكي الولد مرتعباً دون أن يتحرك من مكانه... تخبّط بكلتا يديها على الباب رافعة صوتها: (افتح الباب يا عنتر... مش هو ده اللي اتفقنا عليه... هات الواد)...

يفتح لها البوابة ليركلها بقدمه قبل أن تدخل، ويزيح بيده ابنه الذي حاول اللجوء إليها، فسقطا ارضاً، وبقي واقفاً بينهما.

تلقي عليه قالب الطوب الذي وقعت إلى جواره، فينشغل بما اصطدم به القالب في جسده، فتحتضن هي طفلها فيجريان في سرعة، وفي عناية السماءعائدين إلى ما كانا عليه.

(غوروا... داهية لا ترجعكم) قالها مغلقاً الباب وراءهما.

***

امرأة الصمت

يكتب، يتراجع عما كتب، يعود ليكتب ما تراجع عنه، يخفيه في حضن أوراقه النائمة، يتسلل ما كتب ليلاً إلى قلبه، تاركاً النوم وأحضان النائمين ليتشعب في ذهنه وقلبه.

امرأة الصمت تتحدث أخيرًا، متفاعلة مع ما كتب بقلبه، فقط بقلبه... الزمان لا يسمح بأكثر من ذلك... ما يصحو في النفس لا يجب أن يكون خارجها.

تُـري لو عاد الزمان أكـان سيسمح بالقرب؟... ترى؟! يغفو فيحدث ما تخيل.

يصحو فزعاً إثر طرقة على باب شقته... عادت زوجته وأبناءه من سفرتهم.. تفتح زوجته النافذة لتغير هواء الغرفة بآخر صباحي يشق الليل وَيخمد النجوم، مجاهداً في سبيل الصباح فيدخل معه النور ممزوجاً بنظرة منها على الجانب الآخر.

تنظر إلى زوجته من نافذتها لتلقي عليها التحية مرحبة بقدومها، وإعلانًا عن اشتياقها لرؤيتها، واعدة إياها بالزيارة التي لم يتمناها، فقد تمناها هناك... بعيدة خلف النافذة، ليظل الاشتياق دافعاً لمشاعره... وإن جاءت هل ستظل في داخله بقدر ما هي بعيده؟!

سيعود أبناءها من بيت والدهم المنفصل عنها، وستنسي وعدها بالزيارة، وستظل بعيدة قريبة... تلقي بنورها من وقت لآخر لتمد في كتاباته الروح.

***

مسحوق الغسيل

تستلم جمعيتها بيمناها، فتمسك بقائمة المشتروات المؤجلة بيسراها...

تسرع إلى السوبر ماركت... تتقدم بخطىً واثقه، تمد يدها لتحمل مسحوق الغسيل الأرخص، ثم تعيده فتأخذ الأغلى، والأفضل، ثم تتركه لتأخذ ما توسط سعره وقدرته على التنظيف، وزادت كميته ليكفيها لشهور، مع الترشيد في الاستخدام.

تذهب لقسم الشامبو، فتختار ما تفضل من نوع وتضعه بعربة المشتريات مع سابقه... تذهب لقسم الأجبان فتختار نوعين تحبهما كثيراً، وكان قد ارتفع سعرهما بشكل ملحوظ في الفترة الأخيرة من سنوات ما بعد الثورة.

اكتفت بما اشترت على أن تشتري الخبز (الفينو) أثناء عودتها لبيتها كي يتناسب مع مذاق الجبن المُشتري.

بدأت بعد عودتها بحمامها الليلي الصيفي المعتاد... وضعت الصابونه جانباً ثم غسلت شعرها بالشامبو، وأغمضت عينيها

مستسلمة لماء الدّش تاركةً إياه ليحرك الرغوة الكثيفة لتكسو غالب جسدها، منزلقة لأسفل... ذاهبة إلى المجهول داخل بالوعة البانيو، بعد استغلالها مرورها على جسدها بتدليكه بها ليتشرب تلك الرائحة التي تحبها.

ارتدت ما يرتاح له جسدها...

فتحت كيس مسحوق الغسيل الذي وضعته فوق الغسالة الأتوماتيكية بالحمام... وضعت منه كمية مناسبة في درج المسحوق بعدما ملأت الغسالة، فالغسيل المتسخ صار كثيراً بعد نفاد المسحوق منذ أسبوع... شغّلت الغسالة، وذهبت لمجلسها بالشرفة بعد أن أعدّت سندوتشات الجبن اللذيذة مع كوب لبن فاتر... أخذت تأكل في هدوء، تراقب أثناء ذلك النجمات الساهرات في سكون حتى تشبعت.

ذهبت لتغسل يدها بعد الطعام، ففوجئَت بكيس المسحوق وقد انقلب بكامله في (جردل) الماء المجاور للغسالة... صرخت قدر طاقتها.

***

رسالة ضائعة

تُلقي بورقة قد كَتبت على أحد سطورها (أحبك)، والإمضاء في آخر السطور (هدى)...

تسقط بعيدًا عنه فلا يراها، ويستمر في صعوده الدرج...

تنزل هي بعدما أغلق عليه باب شقته.. تمسك الورقة فتخفيها في توتر تحت بلاطة مفكوك لصقها، حينما تخيلت أن احداً يصعد السلم.

.....

يرفع البلاطة بعدما ضغط من دون قصد على حرفها... يجد ورقة على أحد سطورها كلمة (أحبك)، وعلى آخر سطورها إمضاء (هدى)...

يبتسم ثم يضع الورقة في جيبه، ويصعد إلى أن يصل إلى شقته... تركض إلى أحضانه طفلته ذات الخمس سنوات.. يحتويها قائلاً (بحبك يا هدى)...

.....

تهبط الدرج بعد توديعها أمها، فزوجها في انتظارها بمنزلهما.. تنظر بحكمَ العادة خلال سنوات ست إلى البلاطة المفكوكة، فوجدتها مرفوعة بلا رسالة تحتها.

آتاها صوت طفولي من الأعلى: (وانا كمان بحبك قوي يا بابا)، ثم صوت لإغلاق باب شقة.

تنزل الطفلة مسرعة فتلتقيان عند البلاطة المفكوكة. تحتضن الطفلة في حنو.

(انت ماشية ياطنط هدي؟.. انا كمان نازلة اشتري حاجة حلوه.. بابا اداني فلوس كتير وقالي بحبك)

هبطا الدرج سوياً، ثم ذهبت كل منهما في طريقها، يحويهما ليل واحد ونجوم، وسماء بلا حدود.

***

طريق أخرى للعودة

والروح مني تخرج إلى هناك. هناك الذي لا أعرفه. يحملوني على حامل خشبي. ممددة أنا عليه بلا حراك، لكني أسمعهم جيداً. أشعر بقلوبهم التي تبكي، وقلوب بعضهم التي لا تشعر بشئ تجاهي.

أنا في طريقي إلى مدافن عائلتنا كما أوصيت. أشعر بذلك. بل أسرع إلى هناك لا أدري كيف ولكني أفعل.

أسمع من بعيد أصواتاً مهللة ومكبرة. أظن أنهم في انتظاري. تطغى أصواتهم على أصوات المحيطين بي.

يفتحون باب المقبرة، ويسكنوني بين أجدادي وبعض أعمامي وعماتي. لا أرى حدوداً ولا فواصل. يغلقون علي الباب، ثم يذهبون.

يشتد النحيب... لا أريد سماعهم الآن. أنا هنا بين أحبتي.

لا كره هنا ولا حقد، ولا شيء سوى الحب، والترحيب ممن حولي. ليس هناك عذاب. إنها الجنة على بعد بعيد.. أراها هناك.

أرى الخضرة والأنهار، وأشم رائحة لا توصف. لا أرى الدنيا أبداً. لا أري أولادي الآن.

هناك ملائكة أجيب عن أسئلتهم كي أستقر في مكاني استعداداً للرحيل كما أخبروني.

يسألني أهلي من حولي عمّن في الدنيا منهم، فأخبرهم بأحوالهم.

لا أخاف الليل كما ظنوا، ولا أشعر الآن بذلك الألم الذي شعرت به عند اصطدام سيارتي بأخرى... تجاوزت كل شيء وأستمتع الآن باحتفاءهم بي.

لا أعرف إن كانت الروح تسكنني، أم أنها ذهبت مني حقاً... أظن أحياناً أنها عادت إلي عندما أغلقوا عليّ القبر، وأظن أحياناً أخرى أنها لا تسكنني، لكني أسمع وأشعر ولكن بلا إرادة، ولا قدرة على التعبير، ولا قوى على الحركة.

عالم غريب أحببته، وخشيته في ذات اللحظة، فهنا كل شيء مختلف. كلنا في انتظار القيامة... البوق الذي سنسمعه جميعاً كي نهرع إلى هناك، كلهم هنا يتحدثون عن ذلك... يتحدثون بلا

حديث. بلا أصوات ولا حراك، ولا ألسنة، فكلها ذابت وتحللت في التراب.

عليّ أن أهدأ الآن كي أترك البكتيريا تقوم بعملها دون إزعاج، فهي مأمورة بذلك، فلا اعتراض.

أنا أصلاً لا أحتاج لجسدي الآن، فالجميع هنا هياكل عظمية خاوية من كل ما كان يكسوها، ويسكنها.

لا فرق هنا بين ليل ونهار.. أري ما هو أجمل من السماء ونجومها وأَنَسَ بمن حولي، وتضئ لنا أدعية الأحياء القبر.

ها هو دعاء أمي يملأ قبري نوراً، وذاك الشعاع الآت من بعيد هو دعاء أبي.. يخفت كل ذلك قليلاً ببكاء أبنائي، فيسطع مرة أخرى بدعاء طيب من زوجي المحب.

سأسكن الآن.. مأمورة أنا بذلك.. انتظر احبتيي بشوق، فالموت ليس بِشَرّ كما ظننا.. ليس شراً إطلاقاً.

***

الجُنينة

في ساحة جنينة البرتقال الموروثة عن جدنا نضع الكراسي... نشم رائحة البرتقال في ربيع مجلسنا.

نجلس نحن نساء العائلة، ومن حولنا أولادنا يلعبون ويتنازعون الألعاب، ويتراضون، فيعودون ثانيةً لما كانوا يفعلون.

نتناول الشاي المُقدم من إحداهن أثناء الحديث الليلي الأخاذ إلى ذكريات الآباء والأجداد، وتنطلق من صدورنا تنهدات تمتزج بعبير الزهور المسكون به المكان، تُضحكنا مناغشات النساء بعضهن مع بعض.

النساء هُنا هنّ زوجات لأبناء الأعمام الذين يملكون المكان اليوم. تتجمعنّ الليلة احتفاءً بقدومي وأبنائي من المدينة لزيارتهم.

نأكل كامل الترمس الذي أعدته إحداهنّ، ونتسلى باللب الذي اشتراه أحد أبنائهنّ مُصطحباً أحد أبنائي الذي يقاربه في السن، ليعود سعيداً بالجولة في الطريق المؤدية لبائع اللب.

تأتي إحدى بناتهن البالغات بصينية شاي أخرى بالنعناع تميزاً عن سابقتها، لنواصل الحديث بحديث آخر يحمل أمنيات الصغار وأدعية الكبار بكل ما هو معين.

ينتهي الحديث بإرهاقنا واستسلامنا لكوننا في حاجة للنوم، فنعود إلى مناماتنا، وتختفي نجمة قد رافقتنا لتضئ لنا الشارع الذي سهرنا به، فلا جنينة في أرضنا، ولا زهر للبرتقال، ولا شجر من الأساس، ولا ساحة لبيت كبير يجمع الأفراد.

مات الكبار وغُلّقت أبواب البيت، فبزغت بيوت جديدة صغيرة، يسكنها أولاد الأعمام لتصنع شارعاً كبيراً تحده بوابة حديدية، يزرعون به أبناءهم، فلرائحة الأبناء عبيرٌ يشبه عبير زهر البرتقال.

***

للخطايا هدايا... أحيانًا

أيقظها بكاء طفلتها التي أنجبت - بعد عشر سنوات من الانتظار- بعد غفوة.

التقطتها بين ذراعيها وقبَّلتها في رفق... خمّنت أن شعورها بالضيق ناتج عن شدة حرارة الجو... خرجت بها إلى الشرفة.

الليل ساحر بنجومه اللامعة.. يدفعها للتذكر، خاصة بعد استهداء طفلتها بهدهدتها برفق، وسكون ما قبل عودة زوجها.

لم تكن تدري أن للخطايا هدايا، فبعد صبر على الوحدة في وجوده، وعلى القسوة في قربه، كان ضعفها أمام صديقه المُقرَّب.

وما بين قوته وضعفها... شوقه واحتياجها.. كانت "دنيا" ابنتها التي ظلت تنتظر، طيلة السنوات القاسيات، فصارت السعادة والبهجة، والأُنس.

نسيت خطيئتها، وتذكرت دنيتها... استغفرت ربها، ودفنت سِرها في نفسها.

عاد زوجها فقبّل يدها في رفق، وجلس تحت قدميها هادئاً ينظر في ابتسام إلى وجه دنيا، ينتظر أن تفتح عينيها، وتنظر إليه لتضحك الدنيا.

***

المناضلات

هذا النحيف ذو الشعر الأبيض، وحكاياه عن النسوة الكُثُر.. شقراوات، وسمراوات.. كلُّهنّ أحببنه، ولم يحبهنّ كما تمنين.

هكذا أخبرني حينما التقيته بمقهى (الحرية) لأول مرة، لا أعرف لماذا أخبرني بذلك؟! ولماذا قصّ عليّ قصصه؟!... لماذا انتقل إلى طاولتي من الأساس، ولم أكن أعرفه من قبل؟!

فقط كنت أراه بحكم عمله كصاحب المقهى، وبحكم ترددي على المكان.

المقهى مليئ بالصور.

صور لممثلات، ومطربات، ومناضلات...

يقول إن كلهنّ مناضلات... لم يضع على حائطه صورة لرجل.

كان واقفاً على بعدٍ، وكنت جالسةً على إحدى الطاولات برفقة ابنتي التي بلا أب، والتي قد حكيت له عنها، وعن انفصالي

عن والدها منذ ميلادها، منذ أربع سنوات، حدث ذلك حينما تكرر حضوره إلى طاولتي.

لم يأت الليلة لنتبادل الحكايات كعادته مؤخراً، بل ظلَّ بعيداً يتابع الحضور بعينيه، فتبادلنا السلام بأعيننا.

أضاء وجه ابنتي ضاحكةً، مشيرةً بأصبعها إلى صورة فوق الحائط قائلةً (ماما).

التفتُ فوجدتُّني إلى جوارهنّ...

انقطع النور فجأة، فأسرع بإضائة كشَّاف صغير أمامه، فأضاء وجه المكان تساعده نجمات السماء الباعثات ضيائهن.

***

الوطن

اِلتهم غداءه الذي أعدَّته له... فأشار إليها بأن ترفع الصينية عن السرير فرفعتها بعدما وضعت له كوب الشاي الذي جهزته على الكمودينو.. ذهب ليغسل يديه ثم عاد ليبدل ملابسه، وفي أثناء ذلك أخذ يرشف رشفات من الشاي الذي كانت حرارته قد بدأت تهدأ قليلاً، فالنهار يكاد أن ينقضي، والعجلة ضرورة للقاءات الليلة.

اِنسكب الشاي أثناء إعادته الكوب للكمودينو بعد إحدى الرشفات، فأشار إليها أن نظفيه.

أكمل إرتداء ملابسه،، وأخذ جميع مفاتيحه، وذهب كجميع الأيام السابقة.

ذهبت لإحضار خِرقَة بالية لتنظيف ما قد انسكب... فعلت ذلك بجداره... ذهبت إلى المطبخ لغسيل أثر أكلِه وشربِه... نظفت آثار الطهي على البوتاجاز.

ذهبت لتستريح قليلاً على سريرها... فتحت التلفاز فوجدت البرنامج الذي تقول مقدِّمته إن ثمة زوجة قتلت زوجها لأنه لم يكن يحبها، ولم يكن يتركها لتعيش، وكان يتعمد استخدامها باستهانة.

هكذا قالت القاتلة، وحينما سألتها عن سبب استسلامها، قالت إنها تحبه بشدة وتحمَّلت على أمل أن يستشعر قدر حبها من تصرفاتها معه، لكنه كان أقسى من ذلك الحجر الذي ضربته به على رأسه أمام المارة، في وسط الطريق في لحظة انفجار، حينما أمرها ان تشتري متطلبات البيت، ثم تعود لتطهو له الطعام، وتنتظره بعد عودته من زيارته لصديقه، وتستعد لاستقبال أخته الآتية من سفرتها بعد ساعات، ثم...، ثم...، ثم....

أغلقت التلفاز متحيرة.

اِتخذت قرار الطلاق... أخبرته بذلك فور عودته، فألقى بقميصه الذي بدَّل على وجهها، قال اِغسليه ثم أرسليه للمكوجي أريده مساء الغد.

أخذت نفساً كان مختنقاً... أسقطت رداء عقلها... قالت: أريدك.

ارتمى على السرير قائلاً: اِذهبي واطفئي النور، فأنا مُجهَد وأريد أن أنام.

ذهبت بعدما أطفأت النور.. جاءها صوته منادياً: (منى)... عادت مسرعةً، فأمرها أن تغلق الباب جيداً... خرجت من الغرفة فاعلة ما أُمرت.

جلست تتابع اقتراب نجمتين حتى خُيِّل إليها أن إحداها استوطنت الأخرى.

تكورت في كرسيها.. استوطنت نفسها، وسكنت.

***

ذوي الاحتياجات

يفتح درج مكتبه ليضع كل ذي مصلحة شيئاً من ماله... يغلق الدرج على ما بداخله مقبلاً يده وجهاً وظهراً، ناظراً إلى الأعلى حامداً ربَّه فاتحاً دفاتره لذوي الاحتياجات...

يغلق دفاتره فيعود ليفتح درج مكتبه... يرتب نقوده عاداً إياها، ثم يضعها في جيبه... يلقي على زملاءه السلام متخطياً سلم المحكمة التي يعمل بها، ذاهباً في طريقه إلى منزله ماراً بالصيدلية لإحضار الدواء الذي طلبت زوجته بعد أن نفد مثيله بالأمس. فمرض ابنته قاسٍ لا يرحم، وسيتمكن من مخها إن لم تبتلع دواءها الليلة.

يقف أمام بائع الكفتة في انتظار إتمام شواءها، فهو لا يقدر على أن يرفض لها طلبًا... يتخيل إقبالها عليه وتعلقها بساقه فور فتحه لباب الشقة... ستسعد بالطعام، وسيطمئن قلبه لأخذها الدواء حتى وإن كان على مضض، لن تسقط أرضاً فجأة، ولن تختل رؤيتها نتيجة لزغللة عينيها.

هل ستكبر سلمى؟... هل سيفرح بتخرجها، وزفافها، و....

(اتفضل يا أستاذ) استلم نصف كيلو الكفتة، فشواءه لم يستغرق وقتاً طويلاً.

حدث ما تخيل، ثم ذهب لنومه بعد إغلاقه شباك غرفته مطمئناً، مُودِّعاً النجوم، مُبقياً على ضوء خفيف آت من باب الغرفة المقابل لباب غرفة ابنته المضيئة دائماً.

***

حبَّابَةُ يزيد

(يزيد بن عبد الملك وجاريته حبَّابَة)

تسلّلَت الروح مأمورة بالصعود، وتركتها بين ذراعيه جسدًا لا يقوى على الحراك... عينان مفتوحتان بجحوظ... ذراعان ملقيان عاجزان... فمًا مفتوحًا لصعود الروح منه.

ثلاثة أيام و "يزيد" يزيد حبه حبًا، ويزيد عقله استنكارًا، ويزيد قلبه بكاءً، ويزيد دمع عينيه انسيابًا، ويزيد عشقه لجسدها، وانتظاره لعلَّ الروح التي صعدت تعود إلى مكانها، فـ "حبَّابة" المحبوبة لم يكن بمقدورها الاعتراض، فسلَّمت روحها للملك الذي جاء مأمورًا باصطحابها إلى هناك، وبقيت عيناها ناظرة إلى يزيد.

أَلِحبَّة رمان صغيرة كل هذا الجبروت! أَبِقلبها كل هذه القسوة! أَلَها من القدرة ما يجعلها تفرق بين حبيبين!

حجبت عنها الهواء بمكر رغم صغرها.

انتفخت حبَّابة لمرور أيام ثلاثة وهي إلى جواره في فراشها... انتزعوها منه لدفنها.

ظلت الروح تنادي الروح طيلة خمسة عشر يومًا، تحضرت أثناءها، فاستسلمت ملبية النداء لتسعد باللقاء.

سكن الجسد جوار الجسد، فَلْيُكمِلا في السماء ما قد بدآه في الأرض.

أضاءت السماء مصابيحها احتفالاً وابتهاجاً، لتظل حكاية لا تُنسى.

***

جسد وسرير وثلاجة

في كل هذا البيت الكبير ذو الطابقين لا توجد الحياة إلا في هذا الجانب الصغير من الطابق السفلي.

حمّام الضيوف الصغير بجانب الباب، ومطبخ ليس الرئيسي بالبيت، وسرير خلف الباب تنام عليه لعلَّها إن ماتت تكون قريبة لمن سيكتشف غيابها ويبحث عنها... أو ليشم رائحتها المارة إن طالت موتتها.

تمد يدها إثر طرقة على الباب... فتحت بسلاسة، فرأس السرير خلف ضلفة الباب الثابتة... تدخُل جارتها العجوز لتعطيها ما اشترت لها من خضراوات تناسب في كميتها احتياجاتها خلال أسبوع قادم.

تجلس صديقتها قليلاً ثم تذهب بعد تبادلهما الشكوى من آلام الركبة ووجع الرأس والكحة التي لا تنقطع في ظل هذا الطقس البارد والذي يختلف عن برد زمان كما شعرتا.

تستمع إلى ما تتابع من برامج في الراديو أثناء تمددها على سريرها، وبعد وضعها الخضراوات في الثلاجة القديمة التي لم تتغير منذ اشترتها منذ زمن وبعد حجزها لمدة شهرين.

تتذكر فرحتها وفرحة الأولاد بها، وعدم انبساط زوجها بها واعتبار ذلك لونًا من ألوان الإسراف.

ذهبَ الجميع وبقيت الثلاجة... مات الزوج منذ سنوات طويلة، وسافر الأولاد ثلاثتهم واحداً تلو الآخر تاركين القرية بكل ما فيها، وبقيّ البيت، وجسدها على سرير خلف الباب.

تناولت عشاءها، فالمغرب قد أذّن.. ثمرة طماطم، وثمرة خيار، وقطعة جبن قريش... وضعت الصحن تحت السرير لتحمله في وقت آخر.

فتحت الباب لتلحق بأحد الأطفال قبل انسحابهم إلى سكناتم، فالمغرب ميعاد لعودة الأطفال، وسكون الشارع.

لمحت مصطفى فنادت عليه طالبة منه أن يشتري لها (صباعين ملبن)، ويشتري لنفسه في المقابل مثلهما... وافق على أن يشتري لنفسه كيس من البطاطس المقرمشه فهو لا يشتهي الملبن.

عاد بعد طول انتظار ونظرٍ للسماء وعدٍ لنجومه... أخذتهما في لهفة: (حينما يأت أحفادي لزيارتي سأرسلهم ليشتروا لي كل شئ دون الحاجة لك، وسيحضرون سريعاً، فهم أفضل منك)... هكذا قالت.

أشاح بيده غير مبالٍ منطلقاً إلى منزله يحمل حجته التي ستحميه من عقاب أمه التي تناديه من شرفة منزلها متوعدة بالعقاب لتأخره...

أكلتهما في اشتهاء، ثم أوصدت بابها، ونامت على سريرها، بعد أن صلَّت العشاء في مكانها... فلا تزال على وضوئها.

***

نفسٌ مسكونة

تسكنها حكاية لا تسطيع صرفها...

(أمكِ ماتت وهي غضبانة عليكِ، عشان الراجل اللي عاوزه تتجوزيه ده.. جاتني وقالتلي إنك هتتجوزيه هتتجوزيه حتي لو من غير رضاها.... دعت عليكِ قدامي.. صحيح دعتلك بعدها إن ربنا يهديكِ، لكن كانت حزينة وبتعيط... قلبها كان محروق... حطت إيدها على قلبها، قبل ماتنطق بكلمة وقبل ما تقول إيه اللي صابها.. كانت روحها طلعت).

حكاية قصَّتها عليها خالتها حينها.

غُسّلت أمي وجُهِّزت للدفن في بيت خالتي، وكان العزاء أيضاً هناك... أصرّت خالتي على ذلك.. قَبِلتُ حيث كان البيت أصلاً بيت جدي وتسكنه خالتي، أما أنا وأمي فنسكن في بيت أبي وحدنا بعد موته مذ كنت في السابعة من عمري. ولم تندفع أمي وراء احتياج الروح والجسد، ولم تقبل رجلاً بعد أبي حفاظاً عليّ.

احتواء بنات خالتي لي لم يمح أبداً نظراتها اللوّامة، لذا لم أمكث كثيراً عندها، وذهبت إلى بيتي.. وحدي.. احمل حزني في صدري، ولومها لي في نفسي قبل إغلاقها الباب ورائي: (انتِ السبب في موت أختي).

لم يتركني لِوحدتي.. كان دائمًا معي يحاول إخراجي من حزني، وصرف الحكاية التي سكنتني، فأوهمه الدجال المخادع الذي لجأ إليه بأنه فعل... حافظ على سيرتي بين الناس كان يهاتفني ولا يقابلني إلا قليلًا، حتى صار ببيتي زوجاً بعد ثلاثة شهور... اشترى لي شبكة وغرفة نوم بعدما بِعنا تلك التي كنت أنام على سريرها مع أمي، وظلّ صالون أمي بالغرفة الثانية، فقد كانت حريصة على إبقاءه بحالة جيدة، وبالصالة كنبتين متقابلتين ظلتا كما هما...

كنت سعيدة أنظر دائمًا إلى صورة أمي، وأخبرها بذلك (زوجي يحبني يا أمي، هل كنتِ ستُغيرين رأيك؟.. هل كنتِ سترضين عني لو أنكِ على قيد الحياة؟

ذات ليلة كنت أحَمِّر له البطاطس التي يحبها عشاءً، انطلقت النيران من حولي.. حاصرتني رغم محاولتي الهروب إلى أن استطاع أهل الشارع نجدتي بعد أن احترق جزء منّي، حمدت الله أنه لم يكن بوجهي.

وذات ليلة أخرى، وبعد عودتي من بيت خالتي بعد مدة قضيتها في حضنها.. أعددت له البطاطس التي يحب تناولها عشاءً لأعوضه عن تلك التي لم يتناولها، فلم يحضر وجلست في شرفتي أحادث النجمات اللاتي تجاورنَ أمي في السماء.

أرسلت معها سلاماً ودعاءً لها علّها ترضى.

***

موعد الزيارة

في هذه الأجندة الصغيرة تحت وسادتها دوّنت موعد آخر زيارة منذ عشرة شهور...

(الله أكبر... الله أكبر)، آذان الفجر.. استيقظتْ من النجمة، اغتسلتْ، ارتدتْ جلبابها الأبيض الدي وضعته منذ الأمس تحت مرتبة السرير، تزيَّنتْ بما تحتفظ.. قلم كحل متآكل، وأصبع طلاء للشفاه وردي اللون، ارتدت طرحتها البيضاء التي أخرجتها أيضاً من تحت المرتبة، نظرت إلى وجهها في ظهر صينية معدنية لتتأكد من هندامها.

جلست خلف الباب تنتظر، وحينما سألتُّها عن سبب ما تفعل قالت إنها تنتظر أن تأتي السجانة لتنادي على أسماء من لهم زيارات اليوم، فهُم يأتونها كل عشرة شهور منذ أن حُكم عليها بالسجن المؤبَّد، شَابَ شعرها خلالها وما شابت أمنياتها لرؤياهم، وكَبِرَ ابنها وأصبح رجلاً. تبهجها ملاحظة التغييرات التي تحدثها السنوات على ملامحه وصوته.

في اليوم التالي ومن النجمة، اغتسلتُ وارتديتُ جلبابي الأبيض الذي كنت قد وضعته منذ الأمس تحت مرتبة السرير، وتزينت بما احتفظت هي.. قلم كحل متآكل، وأصبع طلاء للشفاه وردي اللون.. ارتديت طرحتي البيضاء التي أخرجتها أيضاً من تحت مرتبة السرير... نظرت إلى وجهي في ظهر ذات الصينية المعدنية لأتأكد من هندامي.

جلست خلف الباب... انتظرت وفي مخيلتي طفلي الذي تركته منذ شهرين باكياً متلهفاً لحضني، أو لاهياً ناسياً ملامحي.

جاءت السجانة بعد أن استعدت الكثيرات مثلي... نادت على أسماء اللاتي حضر ذويهم، ولم تناد باسمي كما لم تنادي باسمها البارحه.

ربتت على كتفي قائلة (اتعودي اتعودي، ولسه كمان لما تاخدي حكم هيجولك كل فين وفين).

أغمضت عيني الدامعتين لأحلم بالزياره القادمة.

***

أرجوحة

جعل حبلاً يمسك بطرفيه عمودين حديديين مثبتين أحدهما على سور السطح، والآخر على مرتفع أسمنتي على أرض السطح كلاهما لطبقين هوائيين لبث القنوات وإنما فاقدين الطبقين لتغيير مكانيهما بعد أن تعذر بثهما كثير من القنوات الفضائية لصعود البيت المجاور في شكل جديد بعدما تمكن ورثته من هدمه بملامحه القديمة فانتقلت الأطباق كلها فوق هذا السطح الجديد بشموخه في المكان تاركة آثارها.

كان أحد الطرفين مرتفعاً والثاني أقل ارتفاعاً، لكن لا بأس.. وضع وسادة صغيرة على منتصف الحبل، وجلس عليها... دفع الأرض بقدميه بعد أن أمسك بيديه الحبل من الجانبين، فأخذ يروح ويجيئ أماماً وخلفاً، فأخذ يضحك رافعاً وجهه إلى السماء.

لا تروح النجمة ولا تجئ معه بل تصنع خيطاً لامعاً يروح معه ويجئ فيجعل في عينيه بريقاً يزيد من سعادته، غير مبالياً بصوت أمه التي تناديه ليتناول عشاءه وينام، ليصحو باكراً بادئاً يومه الجديد...

أخذ يدفع الأرض بقدميه، فكلما دفعها ارتقى إلى الأعلى...

انقطع الحبل من تحته، فارتمي أرضاً... افاقه نداء أمه مما جذبه، فهبط السلم عائداً إلى ما كان به قبل صعوده.

أمي

أسكن رحم أمي... أسند رأسي إلى جداره... أركل بقدمي في الماء... أدور حول نفسي، فأعود لانكماشي، لالتواء الحبل السري والتفافه حول ذراعي، فيعود كل شيء إلى سابقه.

أشعر بنبضات قلب أخي الذي تحمله أمي كثيراً، وحينما ترقده إلى جوارها، لعله أيضاً يشعر بي.

أراقب العالم من بعيد... أعرف ما يضايق أمي وما يفرحها، من يبكيها ومن يضحكها.

استقبل غذائي من دم أمي موقناً أني سأعوضها من دمي الذي هو دمها حينما أكبر إذا احتاجت ويا ليتها لا تحتاج... أنام على موسيقى قلبها وأصحو على زقزقه العصافير بذلك العش الكامن بجوار النافذة المبني داخل تجويف بصدر الحائط الخارجي.

اقترب الرحيل... دفعني كل ما بداخلها إلى الخارج... حاولت التمسك بمكاني... صمدت لساعات إلا أن كل شئ بداخلها

لفظني إلى الخارج فاستسلمت... فصرخت أول صرخاتي معلناً عدم تكيفي مع خارج رحم أمي.

لماذا يا أمي لم تُبقِ عليّ بداخلك!؟... قطعوا الحبل السري الذي يربطني بك... حمموني بماء غير ما كان سر حياتي السابقة... ازداد صراخي استياءً.

لم يهدئني سوى بسمة أمي حينما وضعوني على قلبها، فتحت فمى لألقم ثديها دون اكتراث بألمها، بل انتباهاً لبسمتها رغم ذلك... لبن حلو المذاق.. دافئ... يُشْبِع من جوع ويروي من عطش... ولكن هل سيصل إلى دمي كما السابق أم أننا انفصلنا عن بعضنا للأبد؟

أميز الناس من حولي.. الطيب من الخبيث، الملك من الشيطان، ولا تميز أمي إلا وجهي.. لا تنتبه إلا لي... لي فقط.

فتحت عينيّ أخيراً لأرى وجه أمي تلمع في عينها نجمة يرتد ضؤها على عيني فأسكن مطمئناً لذلك الوصال بيني وبينها.

***

مرض اسمه: أنتِ

يوماً ما سنشفى من جروح القلب، سيتوقف النزف، وستعود إلينا سكينتنا، وقناعتنا بأن هناك أشخاص غير غدَّارين... يحملون لقب إنسان عن حق.

يوماً ما سنتجاوز المحنة، وسننجح، وسنثبت لك أن النجاح بدونك أحلي...

سنرقد على أسِّرتنا، ونغمض أجفاننا وننام في نفوس هادئة.

سننسى.. سننسى تماماً ما نحن عليه الآن لأننا حتمًا سنكون على الحال الأفضل.

سَنُجري التحاليل لأنفسنا بعد حين، وسنكتشف أننا شفينا تماماً من مرض اسمه أنت.

أرسلت إليه ذلك في رسالة لن يَقْرَؤُها بعد أن اطمأنت لاستقرار نوم أبنائها، ثم ذهبت إلى سريرها محاولة النوم، مقاومة وجوده في قلبها، ومخيلتها، محاولة نسيان حادثة زواجه من الأخرى.

الصباح

أُلقي نظرتي الصباحية على شارعنا من شرفتي أثناء تناول قهوتي، بعد أن صحوت من النجمة، وتهجدت، وجهت أنظاري إلى السماء مراقبة النجمة ورفيقاتها أثناء اختفائها وإياهم في جوف السماء... أجدها في طريق عودتها، وكأني على موعد معها أو كأنها على موعد معي... تلقي علي نظرتها وابتسامتها المتساءلة- أظن- عما إذا كنت أعرفها... أو ربما تعني أنها تطمئن بوجودي، أو تطمئن على وجودي!.. لا أدري، لكني أبادلها الابتسامة.

تحمل اليوم على رأسها «كُرُنبَة» متوسطة الحجم، وفي يديها كيسين كبيرين من أوراق الكُرُنْب التي اظن أنها تحملها لما ترعاه بمنزلها من طيور أو ماعز.

أخبرني يوماً حارس العقار حينما سألته عنها أنها (الست أم أحمد.. الست الأميرة إللي بتربي ولادها التلاتة بعد وفاة جوزها في حادثة من أول ماسكنوا هنا في الشارع، إنها بتربي

طيور وخرفان على سطح بيتها علشان توفر البيض واللحم لعيالها، لأن معاش جوزها مش كبير).

وفي أَصْباح أخرى كثيرة تلت هذا الصباح كنا نتبادل ابتساماتنا الصامتة كالعادة، حتى قررت أن أترك شرفتي وأنزل إلى الشارع فأقف أمامها أبادلها التحية.

حملت عنها أحد الأكياس رغم تمنُّعها في البداية إلا أنها استسلمت لإصراري... مشيت معها حتى باب منزلها القريب جداً، فدعتني للدخول، فاستجبت مرحبة بذلك.

جلست معها وشربت قهوتي في صالونها... خرَّطت الخضار للطيور معاونة لها... وأطعمنا الخراف الصغيرة والطيور سوياً.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت كل أَصْباح الأيام في منزلها ماعدا الجمعة التي استعد به لاستقبال أبنائي وأحفادي.

***

أحمد... قِسم الطوارئ

كَسْرٌ في ساق ابني هو كَسْرٌ في قلبي... أقف إلى جواره وأتفحص المكان بناظريّ... أسِرَّة متجاورة يفصل بينها ستائر بلاستيكية.. يميزها إمكانية الاستدارة من الأمام لحجب المريض عن عيون المارة.

تُفِيقُني تأوهات المارة من حين لآخر عن الاندماج في المشهد.. تصدر الآهات من كل سرير مع اختلاف الشكاوى.. الأطباء صغار السن حديثي التخرج على ما يبدو، يتناوبون عليهم في لا مبالاة، وهدوء.. يتبادلون الأحاديث خلال ذلك.. أحاديث تعنيهم ولا تعني المرضى.

جاء الطبيب أخيرًا مُجَعّد الوجه إثر نومه عابس سألني بعدم اهتمام عن عمره؟.. فأجبته: 13.. سأل عما حدث له؟.. فقلت: سقط على الدرج فاصطدمت ساقه به.

أمر الطبيبُ العاملَ ان يقص بنطال ابني.. نظر إلى ساقه دون أن يخرج يديه من جيبه، وطلب منا أن نذهب لقسم الأشعة، واختفى في لحظة.

فعلنا ما طلب بمعاونة العامل الذي وضع له والد ابني ورقة نقدية في جيبه قبل أن يدفع السرير المُتحرِّك باتجاه غرفة الأشعة ماراً بالممرات الطويلة المؤدية إلى هناك.

تعاون ثلاثتنا في حمله عن السرير وإلى السرير ما تحت جهاز الأشعة لشدة ألمه... ذهب العامل تاركاً لنا ابني، وذلك لإيقاظ فني الأشعة... جاء عابساً أيضاً.

يبكي قلبي مع بكاء ابني المكتوم لعدم رغبته في إظهار ضعفه أمام الآخرين.

دمعت عيناه رغماً عنه أثناء تصوير فني الأشعة لساقه في أكثر من وضع غير منتبه لألمه. أثناء ذلك نخرج من الغرفة بعد إعادة نقله إلى سريره... يدفعه العامل فتجري العجلات، فتصدم قدم ابني بأحد الأبواب فيصرخ، وأصرخ معه شاعرة بألمه، ويعتذر الرجل أثناء ذلك.

نعود إلى مكاننا في انتظار الطبيب ليلقي نظرته على الأشعة التي تسلمناها. وأخبرنا الفني أنه كسر، ليؤكد رأي العامل الذي توقع ذلك منذ رؤيته بمجرد لقائنا على بوابة المستشفى ونقله معنا على الكرسي المتحرك.

أيد الطبيب كلامهما وطلب منّا شراء كيس ثلج ووضعه على المنطقة المتورمة ليتلاشى الورم ويتمكن من لف الجبس على ساق ابني.

اختفي مرة أخـرى، أظنه ذهب ليكمل نومه... خرجت لأشتري الثلج هاربة من ألم ابني وباحثة عن لحظات لا أسمع فيها تأوهات لمريض.

اشتريته وفي طريق العودة كان الليل يكاد أن يذهب بتفاصيله.. ظلامه، وقمره، ونجوم الليل التي تابعت ألم احمد.

واجهني صديقاه اللذين حضرا لحظة كسره.. أخذا مني الثلج وجريّا إلى الداخل ليقوما بمهمة تخفيض الورم بالتبادل مع أخيه الأكبر.

مصطفي ومحمود صديقاه وعبد الرحمن أخوه تعاونوا على طمأنتي.

أيقظنا الطبيب ليكمل عمله فأكمله وردّ الكسر، وما أقساها مرحلة كاد صراخ ابني أن يخرق طبلة أذني ويوقف قلبي ويفجِّر شرايين رأسي..

أحاط الساق بالجبس، وخرجنا بعدها من الغرفة ثم من الممر، ثم الممر الأوسع، ثم إلى الساحة أمام البوابة الداخلية، فركبنا السيارة عابرين البوابة الأوسع إلى رحلة تحمّل الأيام القادمة بتفاصيلها المؤلمة في سبيل الراحة المبتغاة، متمنية لمن تركتهم بالداخل أن يحظوا بالتحرر من آلامهم... من قسم الطوارئ.

سِر الخلطة

أخذت تخرّط الخضرة في سرعة كي تصنع الخلطة كتحضير لصناعة أصابع المحشي التي يحبها الجميع بسكين حاد.. كادت أن تخرط أصابعها.. أصابتها فقط.. ربطت أصابعها المصابة وأكملت صنع خلتطها.. اتمت صنيعتها..

التف الجميع مساءً يأكلون في نهم على ضوء القمر محاط بالنجوم لانقطاع الكهرباء.. دون وعي لسر الخلطة.

***

خيانة

تغلق التلفاز عن مسلسل مفاده أن زوجة تخون زوجها... ترتدي ملابس الخروج الليلية... تذهب بعد حديث مع زوجها بالتليفون... تغلق وراءها باب شقة ينتظرها خلف بابها الآخر، حاملاً وردة... تملأ رئتيها بعطرها.. ناظرة للنجوم المصطنعة في سماء الشقة.. باسِمة رغم دمعة بعينيها لم تسقط بعد.

***

نفور

فراش دافئ، وستائر داكنة، وغرفة مظلمة.. يضيئها شعر أبيض.. تذهب إلى المطبخ مسرعة... تشرب كوباً من الماء البارد، وتسكب آخر على شعرها حالك السواد فتستقبل قطرة على رمش عينها بريقاً لنجمة آت عبر نافذة المطبخ، فتنتبه لما هو آت من السماء.

***

الإنقاذ الوطني

ملابس النساء السودانيات، وأنا المصرية، تشبه الملاءات المورّدة، ناصعة ألوان معظمها.. تلتف حول أجسادهنّ في أناقة فتظهر بعض أذرعهنّ، وشيئاً من سيقانهنّ، فتبرز الفن المبهر في رسم الحناء على أرجلهنّ وأيديهنّ، وبعض أذرعهنّ.

شعورهنّ إذا ما كنّ في مناسبة مبهجة وهم يحبون البهجة يصنعنّ منها "فُرَماً" تكمل ما ارتسم على مظاهرهن من جمال... يكاد العطر دوماً على أجسادهنّ ينطق.

حولت عينيّ عن الثلاث نساء المبهرات المارقات أمامي إثر انتباهي نزول أحد المجندين من سيارة مارة في طريقها.. يحمل في يده سوطاً ليضرب النساء ثلاثتهنّ، فتجري إحداهنّ مبتعدة، وتسقط الأخرى أرضاً مستسلمة لسوطه الحاد على جسدها، وتسُبّه الثالثة فيصفعها على وجهها بسوطه، فتخرج من فمها الدماء، فيعود ليأت بالهاربة سحباً من شعرها فيسقطها أرضاً وينهال عليها بسوطه: (ما خايفين من ربنا؟.. وين حجابكم؟... غطوا شعوركم وأجسامكم.. الله يهديكم).

يعود إلى سيارته، فتنطلق السيارة وتبقى النساء باكيات ومتألمات.

أعدنّ لف أثوابهنّ بشكل آخر يجعلهنّ مُغطياتٌ بشكل كامل.

تقول احداهنّ: (ما دايرنا ثورة الإنقاذ الوطني.. نحنا كنا مرتاحين).

أغلقت باب منزلنا بعدما اختفينّ عن أنظاري.

أقف أمام ذات باب المنزل الذي كنت قد سكنت به بطفولتي... لأنظر إلى النساء المارقات من أمامي.. لا زالت الرائحة الزكية تكاد تنطق على أجسادهنّ، ولا زالت أثوابهنّ تحمل الورود، وتغطي كامل اجسادهنّ كما تعودنّ.

تقول إحداهن: (ما دايرنا ثورة الإنقاذ الوطني... حيرحلوا متين؟... يا الله!) خمسة وعشرين عاماً تسكن بين المشهدين.

أشتري كيس الفول السوداني الذي كنت أشتريه بـ(طراده) بعشرة جنيهات، من تلك البائعة المارة فأتذوق طعم الماضي قبل أن أمضى عائداً لبلدي، يسكنني مشهد جديد. ربما أعود يوماً آخر لأشهد مشهداً ثالث، وأنا على أعتاب منزلي القديم الذي لن أسكنه، وتحت نجوم الليل التي ربما لن أرها هنا ثانيةً، فالطيارة ميعادها فجراً.

***

(ستظل الورود على أثوابكن تفوح عطراً حتي وإن ذبلت، وستصنع البهجة بألوانها المبهجة، ولعلني التقيكن في حرية وسلام وعدالة)

هبه البدهلي

المؤلفة في سطور

- محامية، خريجة كلية الحقوق، جامعة القاهرة.

صدر لها:

- (للموت معان أخري). مجموعة قصصية.
- (بعيداً.. على حافة الحلم). مجموعة قصصية.
- (الضيق). رواية

فهرس

الإهداء 5

لون آخر للحياة 7

حافظة الأحلام 11

لقاء عاجل 13

التفاحة 15

ليلة 17

نداء 19

الرقم القومي 21

حفل في السماء 25

الجنة أيضًا داخل العباءة السوداء 27

امرأة الصمت 29

مسحوق الغسيل 31

رسالة ضائعة 33

طريق أخرى للعودة 35

الجُنينة 39

للخطايا هدايا... أحيانًا 41

المناضلات 43
الوطن 45
ذوي الاحتياجات 48
حبَّابَةُ يزيد 50
جسد وسرير وثلاجة 52
نفسٌ مسكونة 55
موعد الزيارة 59
أرجوحة 61
أمي 63
مرض اسمه: أنت 65
الصباح 66
أحمد... قِسْم الطوارئ 68
سِر الخلطة 71
خيانة 72
نفور 73
الإنقاذ الوطني 74
المؤلفة في سطور 77

رقم الإيداع: 10922 / 2019

الترقيم الدولي: 0 – 327 – 838 – 977 – 978